Route Educational & Social Science Journal
Volume 6(2) ; January 2019

تشظي (الذات – الهوية – الوطن) في رواية حارس التبغ للروائي علي بدر

Fragmentation (Essence – Divinity – Motherland) In a novel harass Al tobacco The novelist Ali Badr

المدرس الدكتور/ أماني حارث مالك الغانمي
جامعة القادسية / كلية التربية للبنات

الملخص :

تشكلت الدولة العراقية حديثاً فلا وجود لهوية عراقية قبل (٢٣ آب عام ١٩٢١م)، أعلن الملك فيصل خطاب التتويج واعلان المملكة العراقية ، وبعد حاولت السلطة السياسية علناً والدينية خفاءً تشكيل هوية للفرد العراقي وفق ما تراه هي لا وفق المكون المجتمعي ودون مراعاة للنسيج الملون الذي يتكون منه المجتمع المتعدد الطوائف والاثنيات ، وكان هذا الأمر يسير ببطء وبأيدي خفية ، وكانت هذه الأيادي هي وسيلة السلطات المتعاقبة في محاربة أية هوية ثانوية غير هوية الحزب الحاكم حتى سقوط النظام على يد الاحتلال الأمريكي.

ويسعى هذا البحث إلى رصد المعاناة الإنسانية وتجسدها والوجع الذي سببته السلطة بحروبها العبثية وآثاره المدمرة للفرد والمجتمع وأثره على قضايا (الذات – الهوية – الوطن) التي أنبنت عليها حكاية (حارس التبغ) للروائي (علي بدر) ولعبة الوجوه المزيفة والأقنعة المستعارة ، فهي تعبر عن التحولات التي تمر بها المجتمعات عند تغير السلطات المتعاقبة ، وتبين ضياع وقلق واغتراب الإنسان العراقي داخل العراق وخارجه ، وشيوع الخراب بعد الاحتلال الامريكي وبروز قضايا كثيرة منها كانت مخبوءة تحت ضغط السلطة وما ان انتهى هذا الضغط بزوال السلطة طفا للسطح التهميش والاقصاء وتعدد الهويات الفرعية القائمة على اسس دينية – طائفية – وايديولوجية تعززها قوى داخلية وخارجية غايتها فرض ارادتها من أجل مصالحها مما أدى إلى احتراب ابناء الوطن الواحد ، فضلاً عن تشظي الوطن في دواخل ابنائه بسبب الشرخ العميق في تكوين المواطن الفكري والثقافي وانتماءاته المتعددة وافضلية انتمائه الى هويات ثانوية بدلاً من الانتماء الى هوية وطنية واحدة ، فالنص الروائي يكشف مصائر وتواريخ وتجارب وذوات واحلام اجيال من المثقفين العراقيين وعلى اختلاف مشاربهم تشظت على اعتاب السلطة.

الكلمات المفتاحية : الذات ، الهوية ، الوطن .

Abstract:

It is not negative for one that the Iraqi identity was formed recently, when the modern Iraqi state was formed, There is no Iraqi identity before 1920, after this date, the political authority tried publicly and religiously to conceal the identity of the Iraqi individual according to what they see is not according to the community component and without regard to the colored fabric, which consists of amulti – ethnic society, this was a slow and subtle move. These hands were the means of the successive authorities to fight any secondary identity other than the identity of the ruling forty until the fall of the regime by the American occupation.

This research seeks to monitor the human suffering and its embodiment and the pain caused by the Authority in its absurd wars and its devastating effects on the individual and society and its impact on the issues of (Essence – Divinity and homeland) which was based on the story of (the guard of tobacco) of the Bedouin (Ali Badr) and the game of fake faces and disguised masks, It reflects the transformations that societies undergo when successive authorities change, and shows the loss and anxiety and alienation of Iraqi people inside ancl outside Iraq, and the prevalence of the devastation after the American occupation and the emergence of many cases of them hidden under the pressure of power and as long as this pressure ended the demise of power to the surface marginalize and exclusion and multiplicity of sub-identities based on religious – sectarian-ideological bases reinforced by internal and external for as to impose their will for their interests, one nation, as well as the fragmentation of the homeland in the insides of his children because of the deep rift between them cultural and intellectual imbalance in the composition of the citizen and multiple affiliations and preference belonging to the secondary identities rather than belonging to a national identity one, the text novelist reveals the fates of dates and experiences of women and women with dreams generations of Iraqi intellectuals fragmented on the threshold of power.

مدخل

جاءت قضايا (الذات_ الهوية _ الوطن) محاور مركزية في رواية حارس التبغ للروائي (علي بدر)، وهي تشكل وجوه أزمة المواطن والمواطنة في عالمنا العربي بعامة والعراق بخاصة وذلك لعمق الخلل الثقافي والفكري في تكوين المواطن المنتمي لطوائف وأثنيات متعددة الثقافات والعادات والتقاليد.

لتبدأ أحداث الرواية من هذا التأريخ (٢٠٠٦م) عائدة إلى الوراء عندما وجدت جثة الموسيقار العراقي (كمال مدحت) مرمية على مقربة من نهر دجلة جهة الرصافة ، وذلك بعد أقل من شهر على اختطافه على يد مجموعة مسلحة كمنت له بالقرب من منزله في منطقة المنصور. وقد نشرت الصحف العراقية خبر وفاته بلا تفاصيل لتكرار هذه الحالة يومياً بعد الاحتلال الامريكي ولكن الانعطافة الحقيقية حينما نشرت الصحيفة الامريكية (التودي نيوز) الخبر وذكرت فيه أن الموسيقار العراقي كمال مدحت هو (يوسف سامي صالح) من عائلة قوجمان اليهودية هاجر الى اسرائيل في العام (١٩٥٠م) بعد قرار اسقاط الجنسية العراقية من اليهود ومصادرة املاكهم.

يقدم الروائي نبذة عن المحطات المهمة في حياة الموسيقار ، المؤرخة بالسنوات فالوقائع التأريخية الجاهزة التي حدثت في الماضي والتي ذكرها الروائي في بدائة نصه غايتها الاهتمام بالكيفية التي يتخيل فيها الكاتب تلك الوقائع مرتبطة بحيوات مجموعة من الشخصيات ، وطريقته في تحريرها ضمن الاطار التاريخي واعادة انتاجها في سياق سردي تمتزج الاحداث والشخصيات بأسلوب صوغها في تشكيل متجانس.[١]

الصفحات الأولى تتحدث عن موسيقار عراقي نشرت الصحافة العراقية خبر وفاته مثل أي خبر وبلا تفاصيل لتكرار هذه الحالة يومياً وبالعشرات في العراق بعد الأحتلال لكن الأنعطافة الحقيقية التي حدثت حينها نشرت (التودي نيوز) الامريكية الخبر وذكرت إن (كمال مدحت) هو يوسف سامي صالح من عائلة متوجمان اليهودية هاجر إلى اسرائيل في العام (١٩٥٠) في عملية اطلق عليها (عزرة ونحمية) أي بعد قرار أسقاط الجنسية العراقية عن اليهود ومصادرة املاكهم ، كان متزوجاً من (فريدة روبين)، وقد ولد له ابنه منيرفي العراق قبل عام من هجرته الا إن يوسف لم يطق العيش في تل ابيب فهرب إلى ايران عن طريق موسكو عام (١٩٥٣)وبجواز سفر مزور باسم (حيدر سلمان) وفي طهران تزوج من ظاهرة ابنة الثري اسماعيل الطباطبائي وولدت له ابنه حسين ، ودخل بغداد مع عائلته في (١٩٥٨)، وبقي فيهاحتى عام (١٩٨٠) ثم هُوجر الى ايران لأنه تبعية ايرانية ، وقد توفيت زوجته اثناء التهجير وسجن ابنه ، وبعد أكثر

(١) ينظر الدكتور عبد الله ابراهيم ، التخييل التاريخي : السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية ، المؤسسة العربية الدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٧، ص١٧٥.

من عام عاش لاجئاً استطاع الهرب إلى دمشق نهاية عام (١٩٨١) بجواز عراقي مزور باسم (كمال مدحت) وقد بقي في دمشق أقل من عام تزوج هناك من سيدة عراقية اسمها نادية العمري ودخل بغداد عام (١٩٨٢)، ولدت له ابنه عمر وفي الثمانينات اصبح اشهر موسيقار عراقي في القرن الاوسط ومقرباً من السلطة ، وقتل عام (٢٠٠٦) على يد مسلحين.[٢]

تقوم الرواية على حكايتين متواليتين فعندما تبرز الأولى تنقطع الثانية، الأولى هي الاساسية(حياة الموسيقار)، والثانية (حياة الراوي الصحفي) الذي يعاني من التهميش والاقصاء وفقدان الهوية، ويتجلى ذلك بموافقته على العمل صحفي ولكن بصفة (بلاكرايتر) يقوم بكتابة التقارير وتظهر باسم صحفي اجنبي آخر وهو مكلف بكتابة تقرير عن حياة الموسيقار.

يقسم الروائي النص من الناحية الشكلية إلى ثلاثة أجزاء ، جعل الجزء الأول منها ببلوغرافيا ، وخرائط ووثائق ، محاولاً ايجاد خلفية تاريخية لكتابته ، لأهمية العلاقة بين السرد والتاريخ ، وهو بذلك يجرد النص الادبي من بنود الأسلوب والبناء واللغة كاشفاً للمتلقي امكانيات النصوص الروائية الكبيرة في تركيب عناصرها وموضوعاتها من تيارات متضاربة متصلة بالوقائع التاريخية والقصائد والاخبار إلى حوار الوقائع المتخيلة ، فتنعكس هذه في مرايا تلك دون أن تتخلى عن وظائفها الدلالية.[٣]

يرى أحد الباحثين ان (اللغات المستلهمة من أشكال أدبية أو فكرية... والخبر الصحفي لايعاد استثمار ، سماتها وخصائصها في السرد الابعد تحطيم اشكالها الاصلية ثم شحنها بأبعاد جديدة نابعة من أدراك المبدع للواقع والكتابة معاً واخيراً وضع هذه الأشكال والروافد في حوارية مع مختلف لغات النص))[٤]وهذا ما عمد إليه علي بدر في كتابة نصه الروائي ففي هذا الجزء ايضاً تحدث عن صورة مصغرة لعراق مصغر في السنوات الأولى من الاحتلال الامريكي ومعاملة الامريكان لهم لوجود الحاجز السايكلوجي. ومن الصور التي يرصدها لنا الصحفي ، عمل المترجمين في الخضراء الذين سحقهم الاحتلال الامريكي وجوفهم من الداخل وصنع لهم صور مهشمة لشخصيتهم الأولى فهم يعملون بأسماء أمريكية لأن الاسماء العراقية يشعر الامريكان تجاهها بعداوة خفية لذا اختار لهم اسماء وهمية فهي تشبه أقنعة شخصيات حارس التبغ فهي خيالية غير محققة.

(٢) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص١٤-٢٣.

(٣) ينظر د. عبد الله ابراهيم ، الرواية والتركيب السردي ، مج ثقافات ، ع ١٨ ، كلية الآداب ، جامعة البحرين ، ٢٠٠٠.

(٤) محمد سالم الامين الطلبة ، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر (دراسة نظرية تطبيقية في سيمانطيقا السرد) ، ص٣٠٤.

اما الجزء الثاني فقد جعله عنواناً للرواية وهو المضمون الاساس وغايته تحقيق جدلية المتخيل والواقعي، وهي محاولة لتحقيق الإيهام الذي يؤسس غواية وتأويلاً مغايراً في ماهي قصيدة حارس التبغ فرناندوا بيسوا الشاعر البرتغالي ، بوجوهها الثلاثة وما تحمله من سمات للذات والهوية تتجسد في شخصياتها، المتماهية مع شخصيات النص.[٥]

في الجزء الثالث البانورامي، كانت كاميرا الروائي الصحفي هي العين الراصدة ، للمدن الغربية ، واسرار القتل على الهوية وحياة الناس التي تعيش على الحافة ، يوثق لنا بعين كاميراته نتاج الهوية القسرية أو هوية السلطة ، وفي النص عناوين جانبية كثيرة ، وتصورية واضحة حاول الروائي أن يجعلها مركزاً بحد ذاته ، غايته تعرية الواقع من خلال تخصيص اللغات المهمشة ، والخطابات واشكال السرد والصراع على المزاعم المكان والتاريخ والجنس والعرق.[٦]

وبعد أن أوجزنا النص الروائي شكلاً ومضموماً ، ارتأينا تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث الأول تشظي الذات ((بوصفها المجموع الكلي لكل ما يستطيع الإنسان ان يدعي أنه له))[٧]فالروائي هنا يماهي الشخصيات المتشظية في قصيدة (دكان التبغ) للشاعر البرتغالي (بيسوا) ، أما المبحث الثاني كان عن تشظي الهوية التي حاول بطل الرواية الحصول عليها بوسائل عديدة دعته الى تغيير أسمه وديانته من اجل العودة الى العراق ، وفي المبحث الثالث تناولنا تشظي الوطن وأثره على بطل الرواية ومحاولاته المستمرة في العودة الى العراق والمخاطرة بحياته وعائلته من أجل قضية واحدة هي أن يكون في العراق وهويته واسمه الموسيقار بدون أن يوضع في خانة معينة أو يوصف بوصف معين .

اتبعت الباحثة المنهج القراءة والتلقي في تقصي القضايا البارزة المذكورة في البحث ، كون المنهج يقوم على عدة قراءات منها القراءة السايكولوجية والقراءة التأويلية والقراءة التفكيكية والقراءة الفيمنولوجية ، ومن ثم كانت خاتمة البحث التي تناولنا فيها أهم النتائج متمثلة في الكشف عن أسباب ودوافع التشظي في ذوات وهويات البطل وهو يحاول أنَّ يبحث عن وطن من خلال الموسيقى.

---

(٥) ينظر شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، دار رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١، ٢٠١٥، ص٤٦-٤٧.

(٦) ينظر بيل اشكروفت وبال اهلواليا ، مفارقة الهوية إدوارد سعيد ، ط١، تر: سهيل نجم ، د. حيدر سعيد ، دار نينوى للدراسات والنشر دمشق ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص٢٦.

(٧) د. عبد الفتاح دويدار ، سيكولوجية العلاقة بينمفهوم الذات والاتجاهات ، د.ط، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٢، ص٣١

المبحث الاول : تشظي الذات

شغلت الذات الإنسانية عدد كبير من المفكرين والفلاسفة قديماً وحديثاً ،[*]فاختلفت الآراء في ماهيتها وتعريفها وتحديد وظيفتها وانواعها وبخاصة بعد ازدهار العلوم النفسية فالذات شكلت الهوية الفردية وتشير إلى جميع الخصائص الشخصية والجسمانية والادوار والقيم بحسب فرويد،[٨]فهو أول من أشار الى تشظي الذات الذي يشكل الشخصية السوية وينميها نمواً سليماً فقد قسمها الى مظاهر متعددة الانا حجرها الاساس في التكوين ولها دور وظيفي كبير وتنفيذي في الشخصية التي تنتج من توازن قوتين هي الأنا التي تشير الى السلطة الإرادية للشخصية الكلية مع خضوعها لرغبات الهو ، ونمو الأنا الأعلى الذي يعكس القيم التقليدية الصارمة للمجتمع والسلطة الوالدية والهو الذي يشير الى كل موروث غريزي الى جانب العمليات العقلية المكبوتة،[٩] فالذات تستوعب وتشمل قيم الاخرين وتتفاعل مع المحيط فتكون مسايرة له، وعندما اصبح ((الإنسان نتاج متشظ لخطابات مشتتة واصحت (انا) تدلل على إنسان مختلف في كل مرة بدلاً عن الإنسان الكلي الثابت المتواصل في الزمان والمكان)).[١٠]

ويرى أحد الباحثين ((أنه قد يكون من الخطأ تصور إن الذات تعزف منفردة أو محصورة في ذاتية شخص واحد أو مغلقة بشكل سحري ، تبدوا الذوات ايضاً متداخلة مع ذوات الآخرين ، أو موزعة بالطريقة نفسها التي توزع بها المعرفة))،[١١] وليس اعتباطاً اتخاذ بدر من قصيدة بيسوا قالباً لروايته، كما هي شخصياتها، ليس فقط في فكرة الشخصيات الزائفة ، ولكن في المعنى الزائف حتى للشخصية الحقيقية ايضاً ، فالراوي الصحفي الذي ترسله الصحفية الامريكية لعمل ريبورتاج عن الموسيقار القتيل لم يدرك اهمية الديوان الذي وجده في منزل القتيل ، ولكن بعد قراءته للديوان ، وجد اسرار الرجل ومفاتيح شخصيته الحقيقية ، والوجوه الزائفة التي يحاكي بها وجوه بيسوا في حارس التبغ ، كان يوسف صالح قناعها الأول ، فقد خلق بيسوا شخصيات وهمية ، وجعل لكل شخصية سيرة حياة ، أو وجهة نظر ووضع معاشي ،

(*)ينظر: د. محمد المصباحي ، الذات في الفكر العربي الاسلامي ، المركز العربي الاسلامي ودراسة السياسات ، بيروت ، ٢٠١٧. وينظر : عبد الرحمن بدوي ، ربيع الفكر اليوناني ، القاهرة ، ط٣، د.ت .

(٨) ينظر سيجموند فرويد ، الآنا والهو ،تر: د. محمد عثمان نجاتي ، ط٤، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٥٨-٦٠.

(٩) ينظر أماني ابو رحمة ، افق يتباعد من الحداثة الى ما بعد الحداثة ، ط١، دار نينوى ، دمشق ، ٢٠١٤، ص٣٩-٤٠.

(١٠) المصدر نفسه ، ص٥١.

(١١) جينز بروكمير ، ودونال كربو ، السرد والهوية ، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة ، ط١، تر: عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٥ ، ص .

وحتى تفاصيل جسدية ، ولايستبعد أن يكون لهذه الشخصيات وجود حقيقي على أرض الواقع ، أو هي وجوه لإنسان ممزق منقسم على ذاته ، وتابعه بدر على ذلك في رسم الشخصية ووجوهها ، لان العناية الفائقة برسم الشخصية على أساس أنها كائن حي له وجود فيزيقي فمتوصف ملامحها وقامتها وصوتها وملابسها وسحنتها وسنها واهوائها وهواجسها وآمالها وألمها وسعادتها وشقاوتها...لأن الشخصية تلعب الدور الأكبر في أي عمل فالعناية الفائقة برسمها أو بنائها له ارتباط بهيمنة النزعة التاريخية والاجتماعية من وجهة ، وهيمنة الايدولوجيات السياسية من وجهة أخرى،[١٢]الوجه الأول يوسف يحاكي (البرتوكايرو) ، الروائي هنا على لسان الراوي الصحفي يعقد لنا مقارنة بين الشخصين فيقول ((أود في البداية أن عقد مقارنة بين الشخصيتين ، هل كان من يتحدث عنه هو حارس القطيع البرتو كايرو ، الشخصية الأولى التي اتخذها بيسوا لنفسه في ديوان ذكان التبغ ، فيوسف سامي صالح كان بريئاً مثل حارس القطيع البرتو كايرو ، كان ينظر الأشياء بالعيون فقط لا بالعقل : ألم يكن كايرو كذلك؟ ومن وجهة أخرى فإنه لا يولد أية أفكار كبيرة عندما يحدق أو ينظر إلى أي من الأشياء المحيطة به ، كانت نظرته للأشياء محدقة ثاقبة لكنها نظرة محايدة ، إنه يعتقل الأشياء من خلال أحاسيسه ، فهو لا يستجوب أي شيء أبداً؛ هذا الموسيقي العظيم مثل الشاعر بيسوا يقبل بالعالم بشكل هادئ ، يقبل به كما هو بعيداً عن التشابك الغيبي ، إذ ليس هنالك في حياته من معنى خفي ، إنه طفل واسع العينين في التشكيلة اللانهاية للطبيعة))[١٣]فيوسف الفنان يماهيكايرو الشاعر الذي واضب على انشاء مثالي للوطنية في ذاته المطلقة بحيث يتجاوز اسلافه الذين كانوا يعيشون فيه ، ولهذا هو لم يفكر بهم ، عنده يتحول الاحساس إلى الاساس الذي يبني عليه كل شيء ، فيما يتحول التفكير الى صرف فهو صوفي خالص اخلاقه تأتي من بساطته من شعوره بالاستياء كما هي في الوجود.[١٤]

وهذا ما نراه في شخصية يوسف اليهودي ((كان يوسي غريباً عن كل ما يحيط به .. كان الكل يصرخ به أن عليه أن يتطابق مع دوره ، وكان هو يريد أن يتطابق مع الموسيقى ، الموسيقى لا دين لها ، الجمال يدعو للتطابق مع شيء أثيري ، مع إله ، لا مع الزي العسكري ، لقد رفض يوسف أن يرتدي زياً محدداً ، لم يقبل أن تلصق عليه أية بطاقة ، لم يكن يريد أن يكون من هذا النوع أو ذاك ؛ لكنه يمكن أن يصبح ،

(١٢) ينظر عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، ط١، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٦، ص٧٦.

(١٣) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٠٧.

(١٤) المصدر نفسه ، ص١٥٢-١٥٣

حسب الحاجة ، هذا أو ذاك (أن يكون هنا وهناك))،[١٥] المفارقة هنا لا تشظي في شخصية يوسف لأنه أختار هذا التنوع بناءً على رغبته أي انه يريد ان ينطوي في العالم الأكبر فظاهر الكلام تشظي نتيجة لسبب قهري ألا ان باطنه الاتحاد مع الإنسان بمعناه الشمولي الكوني ، فهو يرفض((لعبة الاقنعة التي تمنحها السياسة للناس ، أما الموسيقى ، والفن ، والجمال فكانت ترفض ذوبان كل شخص في الدور ، انت يهودي عليك أن تلعب دور اليهودي ، وتأخذ قناع اليهودي ، أنت مسلم عليك أن تلعب دور المسلم وترتدي قناع المسلم ، أنت مسيحي ، عليك أن تلعب دور المسيحي وترتدي قناع المسيحي ، هذه الأقنعة تيسر للمرء أن يعيش في المجتمع ، غير أن رفض القناع يبقى الفنان غريباً على الدوام))[١٦] لما لهذا القناع من صفات رسمت في الاذهان بفعل الموروث الديني والاجتماعي والسياسي ، وكذلك بالنسبة للمسيحي والمسلم ، في نظر من يغايره في الطائفة أو الدين ، وهذا ما رفضه يوسف لأنه أراد أن يبقى الفنان ، لأنه كان يعتقد ان الموسيقى توحد الاديان ، بينما أراد منه الجميع أن يتطابق مع دوره ، ولكنه أراد أن يتطابق مع الموسيقى التي لا دين لها ، فقد ((كان يتملك يوسف ذلك الوقت وسواس واحد ، وسواس يقول لا تضعوني في محل ضيق ، لا تضعوني في خانه صغيره إنكم تخنقونني حينما تعاملونني كيهودي))[١٧] فمعرفته لذاته كانت متأتيه من فهمه لطبيعة قدراته ومحاولته تحقيق الانسجام الداخلي لمختلف أوجه الشخصية واحداث التكامل بينهما فهو في البيت يتعرض للضغط العائلي لكي يكون كما يريدون ورفضه محاولة والديه تكوين شخصيه له كما يريدان في عالمهم المغلق ، بينما هو في الخارج يحاول جاهداً أن ينتمي لذاته الحقيقية ، من خلال الموسيقى والتفاعل معَ المحيط الذي يمثله الاصدقاء والجيران، فشخصية يوسف القلقة والخائفة من الداخل والخارج، الداخل هي العائلة والخارج هو المجتمع حاولت الاندماج مع المجتمع وذلك من خلال اختياره مجموعة من الاصدقاء تختلف مشاربهم وتوجيهاتهم ((وهذا يعني أن يوسف كان يعيش ذلك الوقت مع شباب المسلمين والمسيحين واحداً منهم ، لقد كسر الخوف إلى الأبد)).[١٨] فيوسف بعد انتقاله الى المنزل الجديد ترك الخوف والتعفن وراء الجدران ولم يعد يختبأ في المنزل فيصف مشاعره في رسالة الى زوجته فريدة فيقول ((أن تعيشي في منطقة يهودي ، في التوراة مثلاً ، هذا يعني أنك تعيشين يهودية بين اليهود، تعيشين خائفة ومترددة لأن هنالك محيطاً أكبر منك ، وهكذا أردت كسر هذا المحيط ، لقد كسرت

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص١٥٣.

(١٦) المصدر نفسه ، ص١٥٣.

(١٧) المصدر نفسه ، ص١٥٢.

(١٨) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٣٧.

القيد الذي كان يطوقني ، وأصبحت أعيش بين الناس واحداً منهم)).[١٩] فالذات هنا هي وحدها القادرة على أن تبني ((عالماً نابضاً بالحياة يتسع لكل المنفيين والهامشيين ، ولأنه يقوم اساساً على اعادة الاعتبار لهم ولإنسانيتهم ويمنح معاناتهم حيزاً إنسانياً)).[٢٠] ولكن هذه الذات تتحطم وتتشظى عندما تتعرض للتهديد والانفصال ، وهذا ما حل بيوسف عندما هُجر إلى اسرائيل ، ولم يستطع الاقامة فيها لان روحه رابضة في العراق بعد أن غادره وحيداً ، وقد شعر أن ((أي احساس متفرد بالذات ينزع الى التلاقي ضمن التركيب الاجتماعي الذي يميل نحو الذات))،[٢١] ألا ان هذا الأمر لم يحصل معه فقد كانت ذاته منقسمة على الآخر الذي يشابهه في معتقداته وطائفته فكثيراً ما كانت تبحث عن شيء تسكن إليه في محاولة منها لاحتراق الذهنيات المتحجرة في مجتمعه المغلق بسبب الديانة والعادات والتقاليد ، والمختلف معه في التفكير والرؤية وبخاصة عندما لقي معاملة سيئة وغير لائقة فضلاً عن شظف العيش فقد ((شحنوهم بلوريات البهائم إلى معسكر الحجر الصحي في شاعر هعليا (بوابة الهجرة) ، ووقفا في طابور التطعيم الصحي ، وفي طابور الطعام للحصول على نصف بيضة مسلوقة وخمس حبات زيتون ، وبعد يومين أخذوهم مع عائلتين أخريين ورموهم في سيارة كبيرة كانت مخصصة لحمل الأبقار .. وأنزلوهم في مخيم كبير .. وهناك على يوسف أن يتعلم الوقوف في طوابير الماء وبيت الخلاء والخبز وشراء اللحم والبيض والزبد بالكابونات والعمل كعامل بناء))[٢٢]، فرغبة الشخصية في عدم التمسك بجذورها لأنه لم يعاني اغتراباً دينياً لأن الطقوس الدينية لم تكن تعني له شيئاً فقد كان يعاني اغتراباً روحياً((جلس يوسي هناك يحرك أصابعه في الهواء كما لو كان يعزف. في إسرائيل لا وجود لحركة الزمن على الإطلاق ، كانت الحياة رتيبة ثابتة ، ويوسف يرقب دورة الفصول واحداً بعد آخر ، لحظاته القديمة في بغداد يستعيدها ليعيشها في اللحظة الراهنة ، شعر بأنه يعيش خارج مسار الزمن ، وكانت مفكرته الصغيرة تحفل بإيقاع حياة المهاجرين الرتيبة ، الصور الشاحبة ، حياة الجنود الكئيبة ، وغياب كامل للفرح والدهشة والجمال ، كان يبحث عن جواب ، ولا يجده ، مع أن ما يبحث عنه كان يكمن في شيء غامض وبسيط جداً ، في شيء ساذج بما يكفي ، في تصور ميتافيزيقي بسيط مثل جسر غير مرئي بينه وبين شيء آخر لا يعرف ما هو ، كان يدرك أن الحقيقة لم توهب لأحد

([١٩]) المصدر نفسه ، ص١٣٧.

([٢٠]) رفيف رضا صيداوي ، الرواية العربية بين الواقع والتخييل ، ط١، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص٢٤٣.

([٢١]) عبد الرزاق الدواي ، موت الانسان في الخطاب الفلسفي المعاصر ، (هيدجر ، ليفي ستراس ، ميشيل فوكو ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ١٩٩٢، ص١٣٢.

([٢٢]) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٥٨.

أبداً والأرض الموعودة موعودة منذ زمن قديم ، مع أنه كان متردداً ، ويشعر بدوار كبير ، وبحسرة وتمزق ، ولكن ثمة شيء أشبه بنداء العالم أجمع يحرضه على الرحيل))،[٢٣] فحاول جاهداً الذهاب الى موسكو بحجة دراسة الموسيقى بمساعده بعض الاصدقاء ، ومنها الى ايران ثم العراق ليعود بذات جديدة اخرى تختلف عن الأولى في المولد ، والمظهر والاسلوب والمكانة الاجتماعية والدين تتجسد بشخصية (حيدر سلمان) ابن تاجر ثري في سوق الاسترابادي في الكاظمية ولد في عام (١٩٢٤) اي قبل الشخصية الاولى بتسعة أشهر من المسلمين الشيعة درس الموسيقى في موسكو ، فغضبتعليه عائلته لأنها بعثته لدراسة الطب ، وهكذا ((فان تاريخ شخصيته الثانية مختلف جداً عن تاريخ شخصيته الأولى، وهو ملزم بطبيعة الأمر بتقمص هذه الشخصية وتجسيدها، حيث تقدم له الشخصية الثانية من خلال هذه الخلاصة التاريخية روحاً قريبة من شخيةريكاردوريس في ديوان دكان التبغ ، فهو شاب محروس من عائلة كبيرة ومؤثرة ، وهو ابن تاجر ثري جداً، وهو موسيقى ايضاً ومتمرد كذلك ، وبالتالي يصبح قريباً جداً من شخصية ريكاردوريس وذلك باتصافه بالآنية والبشاشة ، وإيجاز الحياة ، وزهو الثروة والبهجة التي تقدمها المتع البسيطة ومحاولته تجنب النهايات الهاطفية وغيرها))[٢٤] وهو ملزم بتقمصها وتجسيدها ، وهذه الخلاصة لشخصيةقريبة من شخصيةريكاردوريس في ديوان بيسوا ، المحروسمن الشخصية الاولى التي تؤمن بالقدر والمصير وأن حياتها الروحية محددة وثابتة ((فرحلة العقل البشري إلى بيئة غير بيئته كفيلة أن تنقله إلى عالم متغير)).[٢٥] فالعقل وحده القادر على خلق اناس يتحلون بقوة الانا، وعندهم القدرة على المواجهة ، فالذات المتشظية بقصد لسبب قهري كالتهجير والغربة أو بدون قصد كالتي تعاني اغتراباً روحياً تشرع دائماً بتغير من شخصيات وأن تتقمص دور المخطط والمغير وما يساعدها على هذه المهمة ، ان مغادرتها للذات القديمة تضعف بمرور الوقت ، فتجنح الى التغير الذي هو ((بمثابة الوعاء العام لجميع الاحداث والمبدأ المجرد لسالكيها))،[٢٦] كان حيدر يعزف دون توقف ، فإ((من الواضح أن حيدر سلمان عاد بقوة ذلك الوقت إلى الموسيقى ، بل أصاب شهرة كبيرة ولاسيما بين النخب المثقفة التي وجدت لنفسها مكانة كبيرة بعد الثورة ، وقد أحيا الكثير من الحفلات الموسيقية في أماكن متعددة ، وهي أماكن مختلفة كلياً عن الأماكن التي كان يحيي بها حفلاته فيما مضى ، وأصبح له جمهور جديد من العائلات الشيوعية التي ارتقت ذلك الوقت ، وهي غير

(٢٣) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٥٨-١٥٩.

(٢٤) المصدر نفسه ، ص١٦٥-١٦٦.

(٢٥) محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي ، تحاد الخطاب العرب ، دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٤ ، ص١٨١.

(٢٦) مشيل فوكو ، حفريات المعرفة ، تر: سالم يفوت ، ط٢، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص١٥٨.

العائلات الارستقراطية التي تمت الإحاطة بها بعد الثورة ، والطبقة الجديدة هي الطبقة الوسطى المؤيدة للثورة ، وقد أرادت هذه الطبقة الجديدة أن تصنع لها رموزها الثقافية والسياسية والاجتماعية كبديل حقيقي للمجتمع الأرستقراطي السابق ، وهكذا تأسست جماعة فنية مهمة من النحاتين والمعماريين والموسيقيين التي كانت تؤيد الثورة)).[٢٧]ونتفق الدكتور عبد الله ابراهيم الذي يرى أن المكان ليس حيزاً جغرافياً فقط وانما هو البشر ، والبشر في زمن معين وهذا نكتشف علاقة جدلية بين عناصر متعددة ومتشابكة ومتفاعلة فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر الذين عاشوا فيه وهم تلخيص للزمن الذي كان وفي مكان محدد بالذات وبالتالي اكتسب الناس ملامح وصفات ما كانوا ليكتسبوها لولا الزمن والمكان،[٢٨]وذلك امراً بديهياً لأن المكان يعمق وعي الشخصية لذاتها ويمثل هويتها وانتمائها فهنا صورة عن بغداد وناسها بعد الثورة والاحداث المؤثرة فيها فلكل مكان ميزة وخصوصية يؤثر ويتأثر بالأحداث الدائرة فيه بوصفه فضاءً لهذه الاحداث ، فالتغير الذي طرأ على المكان والمجتمع وحتى الزمن هو تهيئة لما سيحدث من انقلاب يغير في شخصية حيدر سلمان الذي شعر ((بأن العالم المحيط به قد تغير ، وكأنما هو في رجة داخلية شديدة ، فالألوان الصافية قد حلت محلها الألوان الكثيفة ، والحياة الخصبة في بغداد هي ليست البروفات والعروض الموسيقية فقط إنما الكشف والتجلي اللذان تعرض لهما)).[٢٩]وذلك لأنه لم يعد يعيش حياة مضطربة كما كان يوسف شخصيته الأولى التي تعاني من عقدة الطائفة الملازمة له حتى بعد سفره الى اسرائيل ومحاولته التخلص منها بقناع حيدر ، ابن المجتمع وليس المغاير له ((فها هو قد أكتشف نفسه بصورة كاملة تقريباً ، في امتلاكه لشخصيته الثانية بكل وضوح ، كان الأمر يتعدى مسألة تأدية دور ، بل هو إثبات شخصية أخرى أخذها على عاتقه ، أخذها بالتدريب وبالخلق المستمر))،[٣٠] وقد كان هذا بسبب التحول السياسي والثقافي الذي تعرض له حيدر سلمان ألا ان هذا الأمر تغير تماماً بعد سنة من الثورة التي بدت مختلفة كلياً بعد ان تحولت بغداد الى محكمة عسكرية واعدامات ، واعدت طقوس الموت بصورة جديدة تذكره بما حصل سابقاً.

لم يكن حيدر يغادر منزله في بغداد لأنه يطور في داخله نوع أخر من الموسيقى الذي نعده هروباً من الاحداث المحيطة به، فهو لا يمتلك القدرة على استيعابها كلها ، فتسارع الاحداث السياسية في البلد

(٢٧) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٣٧.

(٢٨) د. عبد الله ابراهيم ، السرد الاعتراف الهوية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١١، ص١٦١.

(٢٩) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٨٥

(٣٠) المصدر نفسه ، ص١٨٦.

وخارجه وأثرها الكبير على مفاصل الحياة ، دفعته إلى أن يبحث في الموسيقى عن انجاز خارق يتمثل في اخضاع الروح إلي التجربة الفنية ، لم يكن يؤمن بالبطولة ، كان يؤمن بالفن ويعتقد انه هو الفضيلة ذاتها ولم يخطر له ان هذه الفكرة ستحطم في بغداد وتحت الضغط المدمر للحياة التي بدا عليها طغيان كل ما هو شجبي ، فهو يبحث عن قوة يستمدها من العزف ، وينقاد إلى استياء غير ملموسة ولكنها محسوسة بقوة ، ويشعر كما لو أنه يجمع بين شتات الاديان بداخله اليهودية دينه الذي عرفه طفلاً والمسيحية تسربت إليه من الموسيقى والاسلام الذي يعيش في داخله منذ زواجه من طاهرة ، وخلاصة هذه الذات القريبة من شخصية ريكاردوريس المحروس من الشخصية الأولى.[٣١] ألا أنها تعيش ((في عالم لا يُسيطر عليه وشعر بالعجز عن تغييره لا تمارس حريتها ، وبذلك تفقد وجودها ، ويصبح وجودها مثل العدم أو على الأقل مثل الوجود الطبيعي للأشياء))،[٣٢]وبخاصة بعد التغييرات السياسية والاجتماعية التي طالت المجتمع العراقي بعد انقلاب ١٩٦٨ثم مجيئ صدام الى السلطة عام ١٩٨٠ لتبدأ محنة حيدر مرة أخرى بعد أن تعرض للاغتراب والنفي القسري ، والاغتراب يعني انقسام الذات على نفسها ((بين ما هو كائن ، وبين ما يجب أن يكون ، وبين الاستبداد الواقع عليها ، لشعور الذات بالانكسار))،[٣٣]وبخاصة حين أنطلقت الشاحنات به وبزوجته التي توفيت على الحدود الايرانية لكونهم تبعية ، ولم تستطع هذه الذات المحبطة أن تقضي على الاغتراب وازاحة احساسها بالعجز ، لجأ حيدر إلى ذات أخرى وقناع آخر بعد التهجير القسري الى أيران وتغييب الأبن وموت الزوجة هو كمال مدحت. و((ما إن قرأ اسمه الجديد ورأى صورته في الجواز ، وقرأ تاريخ ميلاده ، ومكان ميلاده ، حتى شعر أن شخصية حيدرسلمان قد ذابت تماماً ، شعر بغربة كبيرة عنها، وكأنها شخصية مفروضة عليه ، شعر بانتماء أكبر لشخصيته الجديدة شخصية كمال مدحت))،[٣٤]المناظرة لشخصية الفارورديكامبوسفيدكان التبغ، وهي حسية ، ذات رغبة محسوسة تتلذذ بالأنباء عن طريق تذوقها ولمسها ، وتريد أن تعيش بجذر على حساب الذاتين الماضيتين ، وما تركتاه من اثار في خفايا الروح المسكونة بالموسيقى تريد التحليق مع المتع والدخان والجنس ، ففي زوايا روحه مذبح لأنه مختلف ،ولكن هل تختفي الذاتان الماضيتان؟

([٣١]) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٨٣-١٨٤.

([٣٢]) الهوية والاغتراب في الوعي العربي ، حسن حفني ، مجلة تبين ، ع (١) ، مج (١)، ٢٠١٢ ، ص١١.

([٣٣]) المصدر نفسه ، ص١١.

([٣٤]) علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢٥٢.

((تكمن قوة هذه الشخصية في انها ، وإن كانت مناقضةومعارضة للشخصيتين الماضيتين ، ألا انها ترتكز بل تلتبس مع الشخصيتين المتواريتين ، وهذه قوة شخصية كمال مدحت ، فبالرغم من حالة العزلة التي كان يعيش فيها والاحساس بالعدم ، الا أن شخصيته كانت ذات ملامح أكثر تجسيداً من الشخصيتين الماضيتين ، فها هو بيسوا يجعل لهذه الشخصية سيرة حياة واضحة ومحددة : فالفارورديكامبوس ولد في (١٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٠) في تافيرا البرتغالية ، وهو بعد أن درس الهندسة البحرية في غلاسكو ، سافر إلى لشرق ليجلب معه قدراً كبيراً من المتعة والاسترخاء والكسل ، أما كمال مدحت فقد ولد في الموصل في العام ١٩٣٣، وهو تاجر معروف ، سافر إلى ايرانوجاء ليحمل معه قدراً كبيراً من حب المتعة)).[٣٥]ومن ايران الى دمشق ((التي يراها للمرة الأولى ، هذه هي تجربته الأولى مع هويته الجديدة ، هذه تجربته الأولى مع اسمه الجديد وشكله الجديد وتاريخه الشخصي الجديد ، كان يدرك بشكل كامل أن بعض هذا التاريخ سيبنيه من هنا ، وبعضه الآخر سيكون مكبلاً به من قبل)).[٣٦]فالأحداث التي مر بها في دمشق وتعرضه للسجن بعد اتهامه بجلب الافيون من ايران ولقائه بالكثير من المهاجرين العراقيين ولاسيما الصحفيين والكتاب الذين هربوا من العراق بالسبعينيات ومنهم سعدون المهندس الهارب من العراق لانه يساري ويكتب في الصحف باسم مستعار مهدت الطريق امامه ليتعرف على نادية العمري عن طريقه واحدى الصديقات وفي اللقاء الأول بينهما يوضح لها ان اسمه وأسم زوجها لا يعدو ان يكون تشابه بالأسماء ثم تتوطد علاقته بها فيتزوجها ، وللأحداث الدائرة في دمشق تلك الايام والصراع بين الاسلاميين والسلطة الأثر الكبير في عودة نادية الى بغدادفقد ((كانت تريد العودة إلى بلادها وتسعى إلى ذلك ، فلم يكن الأمر سهلاً بسبب العلاقات المتوترة بين البلدين ، فما كان كمال مدحت يبحث عنه هو مساعدتها له بالدخول إلى البلاد ، وما كانت تبحث عنه هي هو رفقته لها .. وهكذا قررا العودة إلى العراق ، ليقطنا في المنزل الذي تركه لها زوجها الأول في المنصور)).[٣٧]وعاد شيئاً فشيئاً الى التمرين والعزف بعد ان توقف عن العزف كلياً لمدة ثلاث اعوام تقريباً وتعرف على بعض الاصدقاء المقربين من السلطة وعزف امام صدام حسين الا انه في رسالة الى زوجته فريدة يقول ((لم أنغمس في حياتي بشيء سوى الموسيقى ، هنالك ذات تراقب كل ما افعله وتسخر من كل ما أقوم به ، ألا يملك هؤلاء السادة السياسيون هذه الذات العليا التي

([٣٥]) المصدر نفسه ، ص٢٥٤.

([٣٦]) علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢٥٨.

([٣٧]) المصدر نفسه ، ص٢٧١.

تراقبهم وتسخر من تمثيلهم ومسرحيتهم)).[٣٨] في اشارةً منه الى الوضع السياسي والاجتماعي في تلك الفترة عندما سيطر صدام على العراق والخواء الروحي الذي كانت تمثله السلطةوالموسيقار فنراه يعود الى معزوفته التي كتبها بعد عودته من طهران أواخر الخمسينات ، ولكن تمت مصادرتها مع كتبه ووثائقه في بغداد بعد التهجير ، فكر ماذا لو استعاد اللحن ونوع عليه كما يفعل مع ذاته المتشظية، في محاولة منه الوصول الى تكامل الذات ، من خلال التغيير في النفس والوعي ونمط التفكير وحتى الثقافة ، فهذه التغيرات تؤكد ان الذات غير خاملة وقادرة على التحول والتطور بمجرد الحصول على فرصة وهذا ما حصل فعلاً مع الموسيقار كمال مدحت القدس الخاطئ المناظر لحارس الافيون كامبوس ، وهذا اللقاء بين جميع شخصياته الذي يحاول أن يعمل عليه من أجل تعديل مبادئه ومزاجه ، من خلال آلة دينامية شكل من اشكال الغبطة ، فهذا المغامر الذي يواجه الكون بأساليب مختلفة وقطر خلاصات المدن في داخله ، قصر في إنتاج هوية مثالية ، ولكنه اعتقدأنه تجاوزذلك باالموسيقىوالنساء.[٣٩] لأنه يعيش في عالم لا يسيطر عليه ويشعر بالعجز عن تغيره ولا يمارس حريته فيه ، اذن الذات هنا تفقد وجودها ويصبح كالعدموعلى الأقل مثل الوجود الصغير للأشياء ، ثم كانت نهايته القتل ورمي جثته على نهر دجله ، فوجود ذات متماسكة ومستقرة يعد وهماً لأن الذوات ، هي نتيجة عوامل اجتماعية مثل اللغة والجغرافيا والأسرة والتعليم والسلطة ، وهذا الكولاج عندما يستبدل تبدأ الذات بالنزيف وستحمل شظايا تعزز العزلة والاغتراب ونخلص إلى أنه مهما أراد أن يكون متماسكاً ومنفرداً من خلال الموسيقى تشظت ذاته لأنه خارج المركز أو مطروداً منه لأنه يختلف عن النخبة التي ستتغير بتغير السلطة التي تدعمها.

المبحث الثاني : تشظي الهوية

الهوية لا تمثل جوهراً ثابتاً ، وهي حالة متحركة ومتداخلة،[٤٠]والبحث في الهوية بحث معرفي ، اما البحث عن الهوية فبحث ايديولوجي غالباً ، البحث في الهوية صنع لهذه الهوية ولمتابعة صنعها بأستمرار يكون البحث فيها صنعاً لها ، أما البحث عنها فيعني أنها ضائعة ويجب البحث لأستردادها لأنها منجزة

(٣٨) المصدر نفسه ، ص٢٩٥.

(٣٩) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢٩٨ – ٢٩٩.

(٤٠) ينظر بول ريكور ، الهوية والسرد ، تر: حاتم الورفلي ط١، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩ ، ص٣٧ .

ومكتملة،[٤١]لذا سيكون تركيز البحث في مفهومها المعقد المتأتي من تقاطع الكثير من العلوم.[*] فهي ليست صفة ملازمة للجماعة ومحققة فعلاً بشكل تام وكامل وإنما تؤخذ غلاباً وتحقق غلاباً دون توقن لذا نجدها معرضة للاستلاب دوماً ، فهي المفهوم الثقافي الاكثر مأساوية على الاطلاق لأنه (اكثر المفاهيم الخيالية التي انطوت على عنف وحقد مضمر ، بل هي المفهوم الاكثر دموية في التاريخ ، لأنه ميدان المصائر المتقاتلة، وميدان النزاع والعنف ومجال الصراع والابادة والتطهر العرقي ، الا ان الذين حلموا بشكل طاغ وقاتلوا وقتلوا من أجلها لم يدركوا انه مفهوم سردي ومخترع ومفارقوسيروري ومؤجل وتاريخي وخيالي ومراوغ ومخادع ايضاً)،[٤٢] فالآليات المنتظمة الواعية وغير الواعية والاستراتيجيات المركبة والمستحدثة هي التي توظف عملية تشكيل الهويات وسردها ، الذي تقوم به كل امة ، وكل طائفة وكل مجموعة دينية أو عرقية أو قومية لاختراع هويتها ، التي تختلف عن هوية الاخرين ، بل وتقع في الموقع المضاد من هوياتهم سواء كانت هذه وطنية أم أثنية أم طائفية فلا يتم هذا المفهوم أو على الاقل الوعي به الامن خلال نقضه للحدود الفاصلة للتكوينات والتجمعات. ويرى ادوارد سعيد ان الهوية لا تشكل الا بعد نفي الاخر والحلول محله فهي ليست جوهراً ثابتاً بل يعاد بناؤها بطرق مختلفة تبعاً للثقافات .[٤٣] فتنبني على انسان مقهور ملاحق فضلاً عن كونها انتماءات متعددة (يكفي ان يتصل انتماء واحد ليتفعل الانسان بكل كيانه وغالباً ما ينزع المرء للتماهي احياناً مع اكثر انتماءاته تعرضاً للتجريح، وحين لا يقوى على الدفاع عن نفسه احياناً تختفي هذه الانتماءات وتبقى متوارية في الاعماق ، ويتماهى معها وعندما يسيطر الانتماء المستهدف — الون– الدين– اللغة– الطبقة الاجتماعية على الهوية بكاملها يولد تضامناً لدى الاشخاص الذين يتقاسمونه فيحتمون به ويهاجمون الاخر ، ويصبح تأكيد الهوية بالضرورة فعلاً شجاعاً وعملاً تحريرياً)،[٤٤] فالمواطن الذي عاش في العقود الماضية والى الآن لا يدرك فكرة المواطنة ما هي وما كنهها ، وذلك لوهنها عنده في وطن تعددي ، اما الطرف الغالب (السلطة) هي هوية الاوامر العسكرية واحكام الطوارئ التي تحمل في طياتها القمع الاجتماعي والثقافي والنفسي بشكل مباشر وغير مباشر ، يتغذى على

(٤١) محمد راتب الحلاق ، نحن والآخر دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث المعاصر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٧ ، ص٥٣.

(*) علم الاجتماع ، علم النفس ، علم السياسة ، علم الفلسفة ، علم الانثروبولوجيا ولم نتطرق الى التعريفات المتعددة في هذه العلوم لكي لا نثقل البحث .

(٤٢)رفقة محمد دودين ، الامبراطورية ترد بالكتابة ، قراءة في أدب ما بعد الاستعمار النظرية والمصطلح ، جريدة الدستور الاردنية ، ١٩/ ٨/ ٢٠٠٥ .

(٤٣) ينظر ادوارد سعيد ، الثقافة والامبريالية ، دار الآداب بيروت ، ١٩٩٨ ، ص١٢٢-١٢٤ .

(٤٤) امين معلوف ، الهويات القاتلة ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص٤١ .

الكره والحقد المزروع في اللاوعي لكل هوية مخالفة لهوية المركز – السلطة المستمدة من – الدين– التاريخ – القومية.

فقد عاش بطل الرواية (يوسف– حيدر كمال) في غمرة صراع الهويات في الشرق الاوسط وشعر ان الهويات منذرة بنهاية كل شيء ، وشعر ان حاضره يهيمن عليه شبح الحرب والاقتتال الاهلي ، في بلد تمزق تفترسه الايديولجيات الكاسحة غابت فيه القيم ولا وجود للعقل وفوضى مريعة تتحول فيه الهوية الى قضية خلافية وفضاء نزاعي وخطاب حربي ، وهل ينتهي خوف المجتمع اليهودي المنغلق على ذاته من المجتمع الاوسع المحيط به ، حاول يوسف ان ينهي الخوف من هويته اليهودية وبخاصة بعد الاحداث التي عصفت بعكد اليهود وانتقاله الى مكان آخر ، ((كان يوسف يفرح فرحاً غامراً في عزفه للموسيقى ، كان يهرع راكضاً للمسرح في المساء ، كمن يريد أن يصعد المسرح ويبقى هناك ، لا لأنه يحب الموسيقى فقط ، إنما لأنه ما إن يصعد على خشبة المسرح حتى تسقط هويته مباشرة مع أول خطوة على الستيج ، غير أن هذا الفرح كان يذوب ويختفي في الصباح ، يذوب تحت ضغط الحياة ووطأة الهويات ، فهو ما إن يكون واقفاً على خشبة في المسرح لا يضعه أحد في خانة أو تصنيف ، ولكن في الصباح يجد نفسه رغماً عنه في التصنيف)).[٤٥]لذا شعر يوسف في داخله حنيناً عميقاً وجارفاً للتلاشي في الاثير فهوية اليهودي ثقيلة عليه ودافعه له للماضي واراد الخلاص منها بأية طريقة ، حتى لو كان الاختباء فهو يريد ان يحطم الجدار الذي يمثل فاصلاً بين الانا والاخرين ، المفارقة عندما بدأ يوسف يتجاوز هذا الامر من خلال توطيد علاقته بالمحيط تحطم هو عندما قررت السلطة تهجير اليهود عام ١٩٥٠. عندها شعر يوسف وكأنها نهايته ورفض لأنه لا يعلم ماذا يوجد وراء الحدود (الفوضى– العدم– الفردوس) ؟ هذه التساؤلات التي يطرحها يوسف على نفسه ولا يجد لها اجابات واضحة وشافية دعته للتفكير بقرار واحد حاسم لا رجعة فيه ، العودة للعراق بعد التهجير وان تطلب الامر تغير هويته واسمه وشخصيته ، وهذا ما حصل فعلاً عندما تقتنع بهوية ايديولوجية مضافة لهويته الدينية (اليهودي الشيوعي) عندما انتمى للحزب الشيوعي الاسرائيلي ، وعن طريق صديقه الشيوعي اميل حبيبيالروائي الفلسطيني حصل على دعوة للسفر الى روسيا ليؤدي حفلاً موسيقياً ، وبذلك تكون الموسيقى راحلته الى حيث يتمنى والوسيلة الوحيدة التي تساعده على قبول تشظيه ، وملجأه ومبتغاه عندما تبدأ لعبة الهويات المنتحلة والاقنعة المتغيرة ، ومن موسكو وبعد اتصالات عديدة يحصل على جواز سفر جديد وهوية جديدة باسم (حيدر سلمان) المسلم الذي ينتمي الى عائلة شيعية ،

(٤٥) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٥٣–١٥٤.

تعرض في هذه الرحلة الى تحول سياسي وثقافي كبير.[٤٦] ادى هذا التحول الى تغير في النفس والوعي وحتى الايديولوجيا فقد بدأ متعاطفاً مع اليسار وتقاطعت وجهة نظره مع الاخر فهو يعاني اضطراباً مع المحيط الاجتماعي ، ويواجه مغامرة التغير القسري ازاء صدمة المتغيرات السياسية الداخلية المتمثلة بالانقلابات العسكرية او الخارجية المتمثلة بالاحتلال،[٤٧] بينما كانت بغداد تعيش نشوة النصر ، وقد احدثت الثورة زيادة في النزعة الجماهيرية الشعبية وهيمنة الغوغاء على الشارع فعادت لذهنه صورة الفرهود وعكد اليهود ، فشعر برعب شديد ، فهو يخاف الجماهير ويعدها خطراً حقيقياً بسبب فكرها غير المفهوم البتة وهي تجمع بين الاشياء الاكثر تنافراً ، وتماهي الكل مع الجزء وتفكيرها وحركتها تشتغل بواسطة المصادفة والتحول فكلمة واحدة كافية ان تجعلها مثل فيل يدخل في بيت من زجاج.[٤٨]

بدت صورة لهوية ظلامية وتسلطية نتيجة تحول السلطة ، وبعد سنة من الثورة تحديداً ، وبفعل القتل والتخريب وتفكك المجتمع الى تيارات عدة ، رفض (يوسف – حيدر) ان تكون هويته لأنها تحمل مخاطر القمع الاجتماعي والسياسي والثقافي ، فهي مختزلة لأنها صادرة من وجهة نظر ذاتية ومتطرفة تكونت من استيهامٍ محضٍ نشأ من خيال بعض الأيديولوجييننغايتهم التلاعب بالجماهير الساذجة الى حد ما لانهم يبحثون عن غايات معينة ،[٤٩] وأول بوادر هذا الاختزال والقمع المبطن محاولة اقناع (حيدر) ان يكون موسيقار الشعب ورفض الامر بإصرارلأنه لا يريد افكار خارجية مفروضة كان يريد لمشروعه الموسيقي افكار داخلية خارجه منه حصراً ، وان تؤثر في الناس وتدفع بهم الى الامام ، فهو يؤمن ان الموسيقى قادرة على رفع مستوى الناس وتوحدهم وتهذبهم وان الفن يهدم الصورة القبيحة للواقع ، تأسست في هذه المرحلة جماعات فنية وادبية تلتقي وتتحاور حول الفن للفن والفن للمجتمع ، وكانت هذه الطروحات توضح جدل شديد في المجلات والصحف ، بدا من خلالها تشظي الشخصيات المتحاورة وتمزقها وتأثرها بالوضع السياسي من بين الماضي والحاضر للبلد وطغيان الهوية الأيديولوجية ، على كل الهويات فالوضع السياسي يدفع بهم الى اليأس والضياع والاحباط وهو يحاول الزامهم بهويته قسراً تحت وطأة الاحكام الصادرة من السلطة وتحولت الهوية الى قضية خلافية. فالفعل الثقافي المتعدد الاوجه بما فيه الموسيقى والرسم والنحت والشعر أن لم يكن يماثل الدم في جسم المجتمع الواحد ويغذي حضارته ويمثل افكار الصفوة والعامة كم يراه

(٤٦) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٨٥

(٤٧) ينظر عبد اللطيف الحرز ، الاثم والكتابة : صراعات الثقافة العربية من النقد الاستعماري الى مدح الدكتاتور ، دار الجواهري ، بغداد ، ٢٠١٥، ص٦٠-٦١.

(٤٨) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢١٨-٢١٩ .

(٤٩) ينظر شهيب عادل ، الثقافة والهوية – اشكالية المفاهيم والعلاقة ، على الموقع أرنتروبوس الالكتروني .

مالك بن نبي،[٥٠] فكانت النتيجة انقلاب عام ١٩٦٣ حينما اصدر البعثيون والقوميون بياناً لسحق الشيوعيين جميعاً وكان (حيدر) على رأس القائمة فهرب الى طهران ثم الى موسكو امضى وقته هناك يطور مهاراته الموسيقية باحثاً عن انجاز خارق يخضع الروح للتجربة الفنية خاض عنده البحث عن الفضيلة او هو الفضيلة ذاتها ويراها قادرة على ايجاد حل للجميع ، ومن موسكو الى نيويورك للعزف فيها الا انه يرفض العزف في قاعة كارنيجي في نيويورك لانها وافقت يوم الاجتياح الاسرائيلي للأراضي العربية عاد الى العراق عام ١٩٦٧.[٥١] امضاه معتزلاً في منزله يحاول ان يجد علاقة بين هويته الأصلية والمستعارة وثقافته لأنها تعني علاقة الذات بالإنتاج الثقافي ولا يتم هذا بغياب الذات المفكرة التي تنتج الثقافة وتحدد نوعها وهدفها وهويتها في كل مجتمع انساني وتتطور اما بالانكماش أو الانتشار،[٥٢]فتطور نوع جديد من الموسيقى الصوفية الانه نوع من التصوفالجديد يخلط بين الاسلام والقبالة أي يمزج هويتين دينيتين هما الاسلام واليهودية فالهوية التي يبتغيها لا تعني الانغلاق على الذات أو على التراث والثبات وعدم التغيير والتطور ما دامت غير مفروضة عليه لأن الثبات فهذا لا يقود الا إلى التعثر والاندثار والموت، وبعد عام من العزلة حدث انقلاب عام ١٩٦٨ وعادت طقوس الموت فالجماهير التي تختلف تماماً فيما بينها ولكنها تصبح هيئة واحدة وتؤدي حركة واحدة وصرخة واحدة وكان هذا الأمر يثير الرعب فيه ، فهو لا يؤمن بالجماهير، ويبتعد عنهم ، فهذه الطقوس تعني حالة من تقهقر الذات وخضوعها امام الآخر ومن ثم الصراع معه لتأكيد الهوية ، وهذا ما حصل فعلاً فبعد عامين من الانقلاب وتحديداً عام ١٩٨٠ بدأت تصفية الحسابات بغداد تصفي حساباً مع ما صحبها بعد ان اعدم صدام رفاقه وطهران تقضي حسابها مع ماضيها بعد ان استلم خميني السلطة وازاح الشاه ثم وقف وجهاً لوجه وكانت نتيجة هذه الوقفة التهجير لمن هم تبعية ايرانية ومن ثم الحرب.

وفي نهاية عام ١٩٨٠ انطلقت الشاحنات بحيدر سلمان وزوجته الى الحدود الايرانية ، فعادت حالة التشتت والضياع والياس والاحباط ثم التحول الى قناع آخر وهوية اخرى والاحداث السياسية تتوالى في بغداد وطهران فشعر مرة اخرى ان حياته بلا معنى ، فحاول جاهداً ان يعود للعراق وهذه المرة عن طريق سوريا ، فاستعان بصديقه القديم حسن قزلجي (الشيوعي) الذي تعرف عليه في بيت جواد سليم وكان له ما اراد دبرت له المنظمة جواز سفر مزور لشخص توفي في طهران بحادث سير اسمه (كمال مدحت) تاجر

(٥٠) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ،تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، ٢٠٠٠، ص٧٧ .

(٥١) ينظر علي بدر ، حارس التبغ، ص٢١٤

(٥٢) ينظر أ. عادل شبيب الثقافة والهوية – اشكالية المفاهيم والعلاقة ، على الموقع أرنتروبوس الالكتروني .

عراقي متزوج من سيدة عراقية من الموصل تدعى (نادية العمري) وتسكن دمشق ، هذا كل ما يعرفه (حيدر) عن هويته الجديدة ، وما ان قرأ الاسم ورأى الصورة وتاريخ الميلاد ومكانه ، حتى شعر ان هوية حيدر ذابت وانتابه شعور بالانتماء لهويته الجديدة (المسلم – السني)،[٥٣] وهذه المرة ايضاً هوية دينية وعندما وصل الى دمشق التي يراها لأول مرة ، صار لزاماً عليه التعرف على شخصيته الجديدة واوصافها ، فهوية اي شخص تدخل فيها عناصر مادية مثل (الاسم والسكن والملابس والانتماء الاجتماعي وعناصر تاريخية مثل الولادة والاسلاف وعناصر ثقافية مثل اشكال التعبير في الادب والفن وغيرها)،[٥٤] فكل ما يعرفه عن هويته الجديدة انها تاريخ لشخص آخر يرتبط بالرجل الذي انتحل اسمه فقرر ان يبني تاريخاً هنا في دمشق وآخر سيكون مكبلاً به لأنه مجهول بالنسبة له فالمعلوم لديه اسمه وصورته الملصقة وتاريخ ميلاده ونوع عمله واسم الزوجة التي لم يرها مطلقاً وانما تعرف عليها عن طريق بعض الاصدقاء.

ولابد لنا من ايضاح الفرق بين هويته القديمة وهويته الجديدة فالأولى دينية اصطبغت بالأيديولوجيا والثانية دينية ولكنها خالية من هذه الصبغة ونعزو ذلك بسبب ما حصل لحيدر الذي كان على رأس قائمة المطلوبين اليساريين ودفع ثمن ذلك هروبه خارج العراق لسنوات ، ثم عاد ليهجر لأنه تبعية ، وبعد عودة كمال لأوساط الموسيقى والشهرة الواسعة التي نالها واصبح عازف القصر الا انه كان حذراً جداً في نقاشاته مع العازفين والرسامين امثال منير بشير والنحات محمد غني حكمت لان افكاره كانت تتقاطع مع الجميع فهو لا يرى هناك تفويض الهي في شن الحرب ولا يعتقد برسالة الامة العربية ولم يكن قادر على السخرية من هذه الافكار الايديولوجية القومية التي اضفت على بغداد نوعاً من التضخيم ، ولكن هذه المظاهر كانت تخفي غضباً عارماً في كل مكان وتشوه مخبوء فقد كانت السلطة الاستبدادية تسحق وتدمر وتهمش وتهين كل فرد ، والشعب يعيش حالة من انفصام الشخصية وتمرد وانطواء على النفس وغضب مكبوت ، وما ان انتهت الحرب ((كان يشعر أن أعوام ما بعد الحرب هي أعوام ترقب ، فالسلطة في بغداد كانت تقوم على الحركة ، تقوم على المبادرة ، ولا يمكنها على الإطلاق أن تترقب طويلاً ، كان كما مدحت يشعر أن السلطات السياسية لا يمكنها أن تقاوم ثقل الزمن إلا بالعنف ، وهي تخاف وتخشى هذا الركود الطويل ، لقد شعر أن البلاد أصيبت بتشوش أذهان حقيقي عقب الثورات والحروب والقسوة والعنف. كان هنالك يأس قاتل يلف الناس ، لقد تحول الشعب إلى جمهور والطبقات انهارت كلياً ، لم تعد هنالك فوارق حقيقية ، الجميع يتشابه في كل شيء . لقد توحد الناس في الخوف ، والفقر، والاذلال ، ولم يعد لكمال مدحت

(٥٣)ينظر علي بدر ، حارس التبغ، ص٢٤٦-٢٥٢.

(٥٤) ينظر أ. عادل شبيب الثقافة والهوية – اشكالية المفاهيم والعلاقة ، على الموقع أرنتروبوس الالكتروني .

أي إيمان بأية محاكمة منطقية ، هذا الشرق الأوسط هو هوى من الأحقاد والقسوة والكراهية ، السياسة فيه هي الهوى وحده ، هي قيم منحطة تفرض على مجتمع لا يفرق بين أخلاق السياسيين وأخلاق العصابات ، فيتحول الجميع فيه إلى جماهير)).[٥٥]فوصلت البلاد الى هذا التشوش في الفعل والجنون والعنف غير المحدود والحركة التي لا يمكن كبحها ، بعد غزو الكويت وهذه الصورة التي رسمها الروائي تشير الى تشظي هوية السلطة المفروضة بفعل القوة والتهيؤ لتبني هويات جديدة تختارها الجماهير بعد الاحتلال الامريكي وتكون مستمدة من الطائفة والايديولوجيا ، اما بغداد فقد فقدت هويتها القديمة بعد ان كانت صورتها الظاهرة ابهى مدينة حديثة فقد كانت تعرض فيها المسرحيات والاوبرات من كل العالم والسينما تعرض آخر الافلام والاجانب في كل مكان واناشيد في الشوارع بأحدث الملابس الى آخر الليل تحول هذا كله بعد الغزو والحرب على العراق الى حياة باردة خاوية وبغداد شوارعها قذرة ودكاكينها فارغة والوجوه شاحبة وبائسة وقاعات الموسيقى استبدلت بصالات شعبيةللأغاني المبتذلة فتحولت هوية المدنية الراقية الى هوية البؤس واليأس واصبحت البلاد مرة أخرى في مهب الريح بعد الغزو الامريكي عام ٢٠٠٣ ولم يتبقَ من هوية العازف كمال سوى الموسيقى العجوز بشعره الابيض ولحيته الخفيفة وملابسه القديمة ،[٥٦] وعندما يعود لبيته يجلس في المكان ذاته يرقب تحول الاشجار والازهار ، ويرفع صوت الموسيقى من (الكرامفون) وكانه يريد للموسيقى ان تطغى على اصوات الخوف والاضطراب وصراخ النساء والرجال واصوات التفجيرات الاختطاف والتهجير ، فالكلام لم يعد مجدياً ولا يصل الى اي معنى .

اما الحدث الحقيقي والمهم قبل مقتل الموسيقار هو عودة الابناء فمئير مع القوات الامريكية تحمل افكار التغير والديمقراطية وحسين من طهران مع الحركة الاسلامية الشيعية وعاد من مصر ابنه عمر يحمل حقداً وغلاً بلا حدود لخروج السنة وكل واحد من هؤلاء الابناء يحاول ان يضع من مأساته صورة لهوية تجد مدلولها الحقيقي في التراجيديا فقط مئير كان يبشر بمشاريع مصنوعة في مختبرات الغرب تدعي نقل العراق الى جهة الشرق الاوسط كما اليابان والمانيا بعد الحرب ، وصعق الاب من هويات اولاده المتناقضة وحده كان المثل الحقيقي لصورة الهامش والخارجي والمقصي ، وصورة المعادي لكل سلطة والخارج عن كل ايديولوجيا لان الموسيقى بوصفها فعلاً ثقافياً عرفته على ذاته وهي المرآة الوحيدة التي عكست صورته الحقيقية كحارس للتبغ ، فكل واحد من الابناء جاء من شخصية من شخصياته وكل وجه من هذه الوجوه يطابق هوية من هوياته المعترضة ، وايضا من خلالهم اكتشفجوابه الاساس عن هويته ، وانهم شخصية

(٥٥)ينظر علي بدر ، حارس التبغ، ص٣٠٩.

(٥٦)ينظر المصدر نفسه، ص٣١٩.

واحدة منفصلة متعددة ولوحة تكعيبيةلأبعاد ثلاثة لوجه واحد ، فقد تبين له خطأ اعتقاده لوجود هوية واحدة ورواية واحدة تعاضدت على تشظيها وتشتتها مرجعيات ثقافية ودينية وسياسية ، وحينما ادرك ان لهذه البلاد اكثر من رواية واكثر من هوية، فقد وقف على روايات متعددة ومتناقضة تكتب كل واحده منها تاريخها بمعزل عن الآخر ولا يتم بعضها ولكنها تناقض بعض وتقف بمواجهة بعضها البعض.[٥٧]ونخلص من هذا الى أن الهويات مزيفة لأنها نتاج تشظي هوية واحدة غير قادرة على صنع نفسها تحت وطأة الظروف العديدة الخارجة عن أرادة الإنسان.

المبحث الثالث : تشظي الوطن

تختلف اهمية المكان وقيمته في النصوص الروائية من رواية لأخرى ، وتأتي هذه الاهمية من كونه ارضية الاحداث وخلفيتها وضابط الصراع بين الابطال ، وجزء من كيان المعنى في النصوص ويساهم في تبلور العقدة ، وهو احد اهم ملامح الشخصيات ودليل هويتها وانتمائها وايديولوجيتها والعنصر الذي يمنح الهوية لأي شيء،[٥٨] فهو متعدد الدلالات بحسب تنوعه الذي يوفر ثنائيات التجاذب والتنافر معه ويظهر ذلك جلياً على الشخصيات والاحداث فهو دون سواه يثير احساساً بالمواطنة ، الا ان البطل المتشظيإلى ثلاث ذوات وثلاث هويات يقول ((لم تتسم حياتي يوماً بالروح الوطنية الساذجة ، بل كنت اكره هذه المشاعر جداً ، فهي مصدر العنصرية والكراهية ، ولكني كنت اشعر باني مثل طائر المطر اشعر باني عدت . لابد ان اعود في يوم ممطر ملئ بالبرق والرعد والبرد ، وحين افكر بهذا الامر اشعر ان قلبي يرتعد ويخفق مثل سنجاب ضخم))،[٥٩] السؤال الى اي الاماكن يعود تحديداً ؟ والمكان الذي يعنيه ويعود اليه في كل مرة كان له الاثر الكبير في تشظي هويته وذاته وعاش واقعاً مأزوماً واغتراباً قصرياً ، وظل يبحث عنه في خلجات نفسه وتجلياتها ، وما يحيط بها من احداث ووقائع، عصفت به خلال تحولاته الثلاث من (يوسف الى حيدر الى كمال) ، لم يذكر الروائي الامكنة التي تغرب اليها البطل ذكراً عابراً بل وصف المكان بدقة عالية لأمرين الأول ليكسب النص الروائي المصداقية والواقعية والثاني كيلا يتيح للقارئ تخيل وقوع الاحداث في اي مكان في الارض حدد الامكنة ووصفها وصفاً دقيقاً ازقتها وشوارعها اناسها وملابسهم ومتاحفهم

(٥٧)ينظر علي بدر ، حارس التبغ، ص٣٢٦-٣٢٩.

(٥٨) ينظر مرين محمد عبد الله ، حداثة مفهوم المكان في الرواية العربية رواية وراء السراب قليلاً لأبراهيم درغوثي انموذجاً، مجلة دراسات ، ٢٠١٦ ص١٤٨.

(٥٩) علي بدر ، حارس التبغ ، ص

حتى اوضاعهم الاجتماعية والسياسية ، ورسم لنا وبصورة دقيقة علاقته باناسهذه الامكنة ذلك لأن ((الانتماء للمكان هو الذي يحدد طبيعة العلاقة بالمكان من ناحية الغربة والالفة ، فالمكان الاصلي هو المكان المحوري بالنسبة للشخصية اذا تحققت فيه مطالبها ورغباتها ، ووجدت فيه الجانب الحيوي ، وفي حالة افتقار هذا الجانب تبحث الشخصية عنه في مكان آخر ، ومن ثم يحصل الانفصال عن المكان المركزي والاتصال بالمحيط))،[٦٠]فالأمكنة التي وردت في النص الروائي انمازت بالثنائية (الداخل/ والخارج) او الهنا/ والهناك،[٦١] كما يسميها يوري لوتمان واتصفت بالانفتاح والانغلاق ، فالمكان الذي يمارس فيه البطل سلطته يعد مكاناً حمياً وأنيساً واي اختراق لهذا المكان يعد من أشد انواع التهجم على الحرية الشخصية،[٦٢] وهذا ما حصل له خلال تحولاته، فبعد ان عاش واقعاً مأزوماً داخل العراق بسبب ما تعرض له اليهود من سلب ونهب وحرق ثم التهجير ، فمن البديهي عندما يتعرض الانسان لشيء ما احساسه بالانتماء يتشظى ويفقد هوية والوحدة المكانية التي تحمل ابعاد دلالية تؤثر في تطور الاحداث وما تعانيه الشخصيات من صراع نفسي ومادي ، وسيكون من المسلمات ان يختلف نظرة المهمش للوطن عن نظرة الماسك بالسلطة فالأول يراه كئيباً وظالماً والآخر يراه جميلاً لان ((الذات الانسانية تقوم الانسنة بعملية اسقاط نسبية لمشاعرها وعواطفها او خصائصها على الموضوع الذي تؤنسنه مما يجعله يتورى ويتماهى مع الذات))[٦٣] التي((تكتمل داخل حدود ذاتها ولكنها خارج الحدود تنبسط وتصبغ ما هو لها بصبغتها فتسقط على المكان قيمها الحضارية))[٦٤] الا ان هذا الامر لم يحدث مع يوسف ، فالعنف ، وانعدام الثقة ، وضياع الحقوق ، والمآسي والذكريات الحزينة ، وغياب الالفة التي تعتبر وجهة نظر حول وطن رسمه في ذاته وغير موجود على ارض الواقع ، وبعد التهجير لم يتآلف مع المكان ولم يستطع الاندماج مع المجتمع الاسرائيلي فذهب الى موسكو ليقيم حفلاً موسيقياً،[٦٥] ولكنه لم يشعر بأية علاقة تفاعلية وتبادلية عميقة للمكان معه بوصفه دلالة انتماء ولم يرتبط به مع استمتاعه بشوارعها واجوائها الا انه كان

(٦٠)سعيد يقطين ، قال الراوي – البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، ط١، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص٩٢ .

(٦١)ينظر يوري لوتمانسيزا قاسم واخرون ، جماليات المكان ، ط٢، دار قرطبة ، المغرب ، ١٩٨٨، ص٦٥ .

(٦٢)ينظر سيزا قاسم ، القارئ والنص ، العلامة والدلالة ، د.ط ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢، ص٤٤ .

(٦٣) د. مرشد أحمد ، اسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف ، ط٢، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر ، ٢٠٠٣ ، ص٢ .

(٦٤) ينظر يوري لوتمانوسيزا قاسم ، واخرون ، جماليات المكان ، ص٦٣ .

(٦٥) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ص ١٦٠.

يخطط للعودة الى بغداد عن طريق بعض اصدقائه من الموسيقيين الروس والجيك ، وبالفعل تم له ما اراد وسافر الى طهران ببطاقة سفر مزورة باسم حيدر سلمان فيقوم ومنذ الايام الاولى لوصوله باكتشاف المدينة ، واعجب بها وطبعت عاصمة الامبراطورية الضخمة في مخيلته صورة باهرة سرته لأنها مدينة عصرية احتفظت بالتراث ، الا ان اعجابه بها وحتى زواجه من طاهرة ابنة التاجر الطباطبائي لم تثنيه عن عزمه بالعودة الى بغداد ، ولا بد من الاشارة الى قصدية الروائي باللجوء الى ذكر الاماكن والاشياء من خلال تقصيه وبحثه وجمعه للمعلومات فقد عمد الى ايهام المتلقي بحقيقة الاحداث وواقعيتها اولاً وان يؤرخ للمكان قديماً وحديثاً بدءاً من الاسماء وانتهاءً مما طرأ عليها من تغير من ناحية الشكل ليوضح أثر الاحداث التي ستؤدي الى تشظيها هي الاخرى واثر هذا التشظي عليه ، فالمكان بالنسبة للشخصية ليس مجرد ((فضاء جغرافي متحرك قد يكون قوة جباره تناوئ البطل العداء وتهدد كيانه فيحاول ان يضع حجاباً من المدينة ذاتها حتى يحمي نفسه))[٦٦] وهذا ما حصل فعلاً لبطل الرواية حصراً مع بغداد المتشظية نتيجة الصراع السياسي الدامي بين الطوائف والاحزاب داخلياً وخارجياً فوظيفة الامكنة المذكورة هنا – طهران – بغداد– تأريخية توثيقية لرصد ما يطرأ عليها من تغيرات تؤثر على ملامح الشخصية الروائية وانتمائها وهويتها وبالفعل عاد (يوسف– حيدر) الى بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ باسم آخر وهوية اخرى وانتماء آخر ، واصاب شهرة كبيرة في الموسيقى ، واقام الحفلات داخل العراق وخارجه ولاسيما موسكو وبراغ ، هما من اهم محطات حياته الموسيقية ، ولكنه بدأ يشعر ان العالم حوله يتغير ((وكأنما لا يراه هو في رجة داخلية شديدة فالألوانالصافية ، قد حلت محلها الالوان الكثيفة ، والحياة الخصبة في بغداد هي ليست العروض والبروفات فقط وانما الكشف والتجلي اللذان تعرض لهما))،[٦٧] ما الذي حلّ ببغداد بعد الانقلاب ؟ يضفيها من الطائرة ((لم تكن سوى ارض كاملة ، يتلوى فيها دجلة الذي اصبح لونه الطيني اشبه بالشاي المخلوط بالحليب))،[٦٨] واصبحت بغداد محكمة عسكرية بيوتها متداعية الحياة تعج بالفوضى حشود بشرية غاضبة ومتعبة على الدوام ، لا تخلو ساحاتها من مناظر القتل والسحق التي تغاضى عنها عند رؤيتها مع انها لم تكن مغايرة لما حصل في محلة التورات ، ولا مبرر لسلوكه الذي يخلو من مفهوم المكان الا من الذي يأوي اليه سوى قناعته بتغير هذا الواقع من خلال الموسيقى ، فهي ترفع مستوى الناس وتهذبهم وتوحدهم وتحرضهم على العمل ، الا ان هذه الاوهام تحطمت على صخرة الاغتراب والنفي الاختياري في بغداد ذاتها

(٦٦) د. محمد الباردي ، الرواية العربية والحداثة ، ط٢، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ٢٠٠٢، ص٣٩٢– ٣٩٣.

(٦٧) علي بدر ، حارس التبغ ، ص١٨٥

(٦٨) المصدر نفسه ، ص١٩٠ .

هذه المرة بعد ان شعر بعدم التأقلم مع الوضع فالبيوت ذاتها والفقر ذاته ، فالتغيرات التي طرأت على الامكنة طمست معالم المدينة الجميلة ((عربات فقيرة تجرها احصنة ضامرة وصفوف من الحمير محملة بأثاث متعب تهاجر من الريف الى المدينة))[٦٩] هو اقتحام لمركزيتها من قبل السلطة الدموية، فهذا الواقع الرديء المشوه عن تصدية ينبئ عن بركان سينفجر وبالفعل حصل انقلاب شباط الدموي ، وعودة الى الرحيل والاغتراب العسكري لانه البلاد ضاقت عليه ، بعد ان فرض حضر التجوال وطغى صوت الرصاص على صوت الموسيقى ، وعادت الصورة المخيفة الى ذهنه فالبلاد التي كان يتحرق لهفه ليكون فيها ذكرته بما حصل حينما كان طفلاً فالمكان الحميم الذي يكون فيه الانسان مطلق السلطة فقد حميمية ، لأن العلاقة بين الانسان والمكان من هذا المنحى تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية ، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الافعال التي يستطيع الانسان ان يقوم بها دون ان يصطدم بحواجز ناتجة عن الوسط الخارجي))[٧٠] المتمثل بالسلطة ، فصار لزاماً عليه الرحيل لأنه فقد الحرية والسلطة المطلقة فهو على رأس قائمة المطلوبين ، وكانت الوجهة هذه المرة طهران ايضاً ولم يستطع المكوث فيها فرحل الى موسكو ، التي تعني له الاستراحة الحقيقية ، فمن هذا المكان بدأ يفكر بكتابة موسيقاه الخاصة وجاءه الالهام كان يحاول ان يجمع الخطوط والالوان من الاديان الثلاثة وينظر الالوان بتغير الطبيعة كان يريد ان يحضر شمس بغداد المضيئة في الاجواء الكئيبة الباردة وان يشعر الجمهور بصفاء النهارات الصيفية المضيئة المشمسة في بغداد،[٧١] التي اغترب عنها جداً الا انها ملتصقه بروحه وموسيقاه وبعد سنوات قليلة عاد الى بغداد وقد خرجت دامية هذه المرة من انقلاب ١٩٦٨ ((فاعتزل في منزله يجلس عند النافذة الكبيرة ينظر الى الحديقة ويرقب تغير الفصول فقد غزت روحه الروحانية العميقة فكان يبحث عن موسيقى ناعمة تتصاعد من كل الكائنات))[٧٢] لان حياته اخذت منحى آخر ووجهة اخرى فالعالم المحيط به كان شاحباً وهناك الكثير من الاحداث التي تجعله يهبط الى الارض كلما اراد ان يحلق الا ان جلّ اهتمامه كان بالموسيقى تضعنا هذه الصورة امام كل من المكان والشخصية ، فالمكان هنا يؤدي وظيفة الكشف عن مشاعر واحاسيس الشخصية المنسجمة مع عالمها الداخلي تماماً وبينما ينتابها القلق والضياع من العالم الخارجي الذي اعتزلته ، لانه مشوه ، وسوداوي ، وهو عبارة عن حفلة عرس وطني تمارس فيه طقوس الموت ، في الشوارع بوصفه

---

(٦٩) المصدر نفسه ، ص١٩٢ .

(٧٠) سيزا قاسم ، القارئ والنص ، العلاقة والدلالة ، ص٤٥ .

(٧١) ينظر علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢١٥-٢١٦ .

(٧٢) علي بدر ، حارس التبغ ، ص٢١٥

جزء لا يتجزأ من المدينة التي اصبحت صورتها قاتمة وعدوانية وازدادت قتامة المدينة في نهاية عام ١٩٨٠ ، عندما هدر صوت محرك سيارة في الخارج امتزج مع الضرب على الابواب واختلطت اصوات الرجال بصوت حيدر مستفهماً عن سبب الزيارة فكانت الاجابة الصادمة ((يجب ان تهجروا لانكمتبعية ايرانية)) ،[٧٣] وحشروهم جميعاً في سيارات كبيرة وضاق المكان لكثرة عددهم واوصلوهم للحدود الايرانية العراقية ، هذه الارض التي فرضتها السلطة عليه ويجب ان يعيش فيها بوصفها وطنه الجديد ، ولكن طهران هذه المرة لم تعد المدينة التي سحرته ، لأنهاتشظت هي الاخرى ولبست ثوباً اسلامياً واصبحت باردة جداً ، تغيرت المعالم واسماء الشوارع ، فالتغيرات التي طرأت على الامكنة والشخصيات هي محاولة لاقتحام مركزيتها من قبل السلطة وطمس معالمها من قبل رجال الدين المدعومين بقوة من الفلاحين القادمين الى المدن ومحو ذاكرة المدينة من التاريخ والزمن ، فالتحولات الهائلة التي كانت تحدث في المجتمع الايراني من خلال صراع الانتماءات والقيم والهوية تنذر بالحظر الذي شعر به حيدر فبدأ يفكر جدياً بالعودة الى بغداد مرة اخرى ولكن عن طريق سوريا او تركيا وعليه ان يجد له اداء آخر فمسرحية حيدر سلمان الموسيقى كانت رتيبة ومملة وخالية من التعبير ولا بد من ايجاد عالماً حالياً من التضاد والمفارقة واكثر وضوحاً.[٧٤] والمفارقة تكمن في ان طهران الاسلامية هذه المرة كانت قاسية جداً لم يجد فيها من يلم شتاته بعد وتشظي الاسرة التي اخذوا ابنها الى مكان مجهول والام توفيت في الطريق اليها ، بل كانت سبباً في هجرته القسرية ، وعن طريق بعض الاصدقاء القدامى حصل على جواز سفر مزور باسم كمال مدحت دخل به الى دمشق وعن طريق زوجته عاد الى العراق ، وفتحت له بغداد ومجتمعاتها الراقية ذراعيها عن طريق بعض الاصدقاء وعزف امام رجالات السلطة في يوم النصر ، الا انه شعر ان بغداد اصبحت باردة فاعوام ما بعد الحرب عنده اعوام ترقب الهدوء الذي ينذر بشر كان يسير في شارع الرشيد فيرى ان الكل كان يسافر الجميع يريد ان يهرب اما المدينة لم تعد آمنة فيقول ((كانت اسوأ ايام حياتي ، الشارع يغلي الوجوه عابسه والافق لا يخبئ سوى يوم الانفجار الكبير ، كل شيء يمر بسرعة كبيرة .. صدام تمسك بالكويت ، وجاءت طائرات الحلفاء لهدم بغداد برمتها لم تبق على جسر او شارع او مصنع او قصر – حتى القناطر بين قرية وقرية هدمتها ، وبغداد في غضون ايام تحولت الى قرية حقيقية ، وعادت الناس تحمل الماء على الحمير مثلما كانت ايام زمان ، وكل غريزة بدائية كشرت عن انيابها .. لم تعد للحياة طعم هنا .. وانا لا انتظر سوى ان اموت سلام))[٧٥]

---

(٧٣) المصدر نفسه ، ص٢٣٠.

(٧٤) ينظر المصدر نفسه ، ص٢٣٠-٢٣٥.

(٧٥) علي بدر ، حارس التبغ ، ص٣١٢ .

لم يعد يشعر بالالفة مع بغداد لانها فقدت بفعل الاحداث خصوصيتها وتميزها ، فقد تعامل الاثنان تعاملاً ازدواجياً مع بعضها لم يكن لهما خيار فيه ، فبغداد لم توفر له الامان مطلقاً في كل حالات تشظيها او تشظيه ولكنه كان يعود اليها في كل مرة بلهفة طفل اضاع أمه ، فالحياة فيها باردة كما يصفها وعالم يلفه الغموض وشوارعها قذرة ووجوه الناس بائسة ولم يعد للموسيقى فيها من مكان لانها تحولت الى صالات شعبية مبذلة ،[٧٦] اما الشوارع التي عشقها في تحولاته الثلاث لم يعد تتذكر سوى صورة واحدة باهته عن هذا الموسيقى العجوز ، وهي مسيرته اليومية ببطء في شوارع المنصور بملابس قديمة رثة يرتديها من سنوات ، ويسير في الطريق ذاته كل يوم بين منزله في المنصور الى نهاية شارع الحارثية ، كل شيء ساكن ورتيب الحياة الناس الشوارع مفقرة لا بهجة فيها سوى الوقوف في طوابير مذلة من اجل الحصول على الحصة التموينية تحولت الالفة الى سكون مطلق ومرة اخرى عادت البلاد في مهب الحرب الحرائق الموت في كل مكان ، وانقسام اجتماعي واضح ، وعاد هو الى الجلوس بالقرب من نافذته يرقب تحول الاشجار والازهار ويستمع الى الموسيقى فالإنسان دائماً يحاول ان يقرب لنفسه ((المجردات من خلال تجسيدها ملموسات واقرب هذه الملموسات هي الاحداثيات المكانية فاللامتناهي عند معظم الناس مكاناً متسعاً))،[٧٧] وهذا ما حدث معه فعلاً بعد ان ضاقت الارض بالجثث السابحة بالدم الرائب والاعضاء المتطايرة والاحشاء في كل مكان ، وضاق المكان،اتسعت الموسيقى مكاناً له فهي العزاء الوحيد لتقبل مناظر الخراب في كل شيء والمتزامن مع عودة الاولاد من منافيهم ومن جهات تحاول ان تكتب تاريخها بمعزل عن الآخر فحركة التاريخ من اسفل الى اعلى هي من كشف قصور الوثائق الرسمية الناطقة باسم السلطة ، واللجوء الى نقدها وتفكيكيها بالية مختلفة عن الية التاريخ التقليدي ودفعت الى تنوع الادلة التي منها ما هو شفوي او مرئي في وطن (مكان) مفكك الحيازات ، متشظي وتاريخه الرسمي ليس سوى تراكيب واوهام بشرية ، ولعبة نسجت خيوطها اشكاليات تاريخية وثقافية واجتماعية تمثلت بتأثيرات الاخر ، نخلص الى ان علاقة التأثير والتأثير بين المكان والشخصية لم تكن موجودة على ارض الواقع بسبب الاغتراب والنفي والتهجير وانتهت بالقتل ، فالمكان عنده قطعة شعورية وحسية في ذات الشخصية نفسها ، لان الروائي اراد من المكان ان يكون ذكراه غير قابلة للتشويه او التزييف وان تكشف زيف السلطة من خلال تقريره الراصد لكل الاحداث واثرها على المكان وعلاقته بالشخصيات في النص.

---

(٧٦) ينظر المصدر نفسه ، ص٣١٩ .

(٧٧)يوري لوتمانوسيزا قاسم ، واخرون ، جماليات المكان ، ص٦٥ .

الخاتمة:

وبعد أن شارفت الرحلة مع الموسيقار المتشظي على النهاية ندرج أهم النتائج التي توصل أليها فقد تنبه البحث لتشظي الذات من خلال رصده حركية البطل وعلاقته بالكون والعالم والاشياء داخل النص الروائي فهو يشكو من الألفة ويخلوا من التصالح وغريب على الأمكن ، وتنبه البحث الى أنة الأبعاد الثلاثة لوجوه يوسف عبرت عن الخواء التام المصحوب بتنازلات عميقة حول ماهية الهوية الحقيقية واشتراطاتها التي بحث عنها من خلال تشظياته الثلاث ، ولابد من الاشارة الى أن علاقة البطل مع المحيط به بكل مكوناته قلقة وغير مستقرة يغلب عليها التوجس والحذر ويشعر انه مراقب ومهدد لأنه يخضع بأستمرار الى لعبة المركز والهامش التي تستمد حركتها صعوداً ونزولاً من التحولات الجارية في المحيط السياسي والاجتماعي وبتأثير قوى خارجية وداخلية .

المصادر:

(*) علي بدر ، حارس التبغ ، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٨.

١. ادوارد سعيد ، الثقافة والامبريالية ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٩٨ .

٢. أماني ابو رحمة ، افق يتباعد من الحداثة الى ما بعد الحداثة ، ط١، دار نينوى ، دمشق ، ٢٠١٤

٣. امين معلوف ، الهويات القاتلة ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٤ .

٤. بول ريكور ، الهوية والسرد ، تر: حاتم الورفلي ط١، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩.

٥. بيل اشكروفت وبال اهلواليا ، مفارقة الهوية إدوارد سعيد ، ط١، تر: سهيل نجم ، د. حيدر سعيد ، دار نينوى للدراسات والنشر دمشق ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٠.

٦. جينز بروكمير ، ودونال كربو ، السرد والهوية ، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة ، ط١، تر: عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٥.

٧. حسن حفني ، لهوية والاغتراب في الوعي العربي ، مجلة تبين ، ع (١) ، مج (١)، ٢٠١٢.

٨. رفقة محمد دودين ، الامبراطورية ترد بالكتابة ، قراءة في أدب ما بعد الاستعمار النظرية والمصطلح ، جريدة الدستور الاردنية ، ١٩/ ٨/ ٢٠٠٥ .

٩. رفيف رضا صيداوي ، الرواية العربية بين الواقع والتخييل ، ط١، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٨ .

١٠. سعيد يقطين ، قال الراوي – البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، ط١، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٧.

١١. سيجموند فرويد ، الآنا والهو ،تر: د. محمد عثمان نجاتي ، ط٤، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢
١٢. سيزا قاسم ، القارئ والنص ، العلامة والدلالة ، د.ط ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢.
١٣. شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، دار رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١، ٢٠١٥.
١٤. شهيب عادل ، الثقافة والهوية – اشكالية المفاهيم والعلاقة ، على الموقع أرنتروبوس الالكتروني .
١٥. عبد الرزاق الدواي ، موت الانسان في الخطاب الفلسفي المعاصر ، (هيدجر ، ليفي ستراس ، ميشيل فوكو ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ١٩٩٢.
١٦. عبد الفتاح دويدار ، سيكولوجية العلاقة بينمفهوم الذات والاتجاهات ، د.ط، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٢.
١٧. عبد الرحمن بدوي ، ربيع الفكر اليوناني ، القاهرة ، ط٣، د.ت
١٨. عبد اللطيف الحرز ، الاثم والكتابة : صراعات الثقافة العربية من النقد الاستعماري الى مدح الدكتاتور، دار الجواهري ، بغداد ، ٢٠١٥.
١٩. عبد الله ابراهيم ، الرواية والتركيب السردي ، مج ثقافات ، ع ١٨ ، كلية الآداب ، جامعة البحرين ، ٢٠٠٠.
٢٠. عبد الله ابراهيم ، السرد والاعتراف والهوية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١١.
٢١. عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، ط١، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٦.
٢٢. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين ، ط٤، دار الفكر ، دمشق، سوريا ، ٢٠٠٠
٢٣. محمد الباردي ، الرواية العربية والحداثة ، ط٢، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ٢٠٠٢.
٢٤. محمد راتب الحلاق ، نحن والآخر دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث المعاصر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٧ .
٢٥. محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي ، تحاد الخطاب العرب ، دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٤.

٢٦. محمد سالم الامين الطلبة ، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر (دراسة نظرية تطبيقية في سيمانطيقا السرد) ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧.

٢٧. محمد المصباحي ، الذات في الفكر العربي الاسلامي ، المركز العربي الاسلامي ودراسة السياسات ، بيروت ، ٢٠١٧.

٢٨. مرشد أحمد ، اسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف ، ط٢، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر ، ٢٠٠٣.

٢٩. مرين محمد عبد الله ، حداثة مفهوم المكان في الرواية العربية رواية وراء السراب قليلاً لأبراهيم درغوثي انموذجاً، مجلة دراسات ، ٢٠١٦.

٣٠. مشيل فوكو ، حفريات المعرفة ، تر: سالم يفوت ، ط٢، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٨٧ .

٣١. يوري لوتمانسيزا قاسم واخرون ، جماليات المكان ، ط٢، دار قرطبة ، المغرب ، ١٩٨٨.